IRAQI Academic Scientific Journals
العراقية المجلات الاكاديمية العلمية
مجلة كلية الكوت الجامعة للعلوم الإنسانية
ISSN (E) : 2707 – 5648 II ISSN (P) : 2707 – 563X
www.kutcollegejournal1.alkutcollege.edu.iq
المجلد 2 , العدد 2 , كانون الأول 2021

تجليات الآخر في شعر إيليا أبو ماضي

م. د. سجاد عدنان كاظم [1]

ملخص البحث

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمدٍ وآله الطيّبين الطاهرين وبعد:

يختلف الآخر باختلاف موقف الانا منه، ما يشير الى صورة الآخر وعلى هذا الاساس فهي عبارة عن مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد ما أو جماعة الى الآخرين الذين هم خارجها، فالأنا ستتخذ موقفا من الآخر بصفة الانفصال والمغايرة، فمشترك الجنسية بين الذكور سيجعل من الاناث آخر، والعكس كذلك، وعلى هذا سيجر إلى الطبقية الاجتماعية والتوجهات النفسية وما إلى ذلك.

يأخذ مفهوم الآخر في النتاج الشعري لإيليا أبو ماضي مفهوماً مميزاً لا سيما أن الآخر بالنسبة إليه لم يكن يجسد وجودا حتميا لذات منفصلة، فهو يندمج معها تارة ، وينفصل عنها تارة أخرى، ويجعل من العاقل آخراً تارةً، ومن غير العاقل تارة أخرى، كل ذلك مع إبداع وتميز في الطرح والاداء والصور الشعرية والخيال الخصب والعاطفة الجياشة.

الكلمات المفتاحية : الآخر، الأنا، القومي، الإنساني، الديني، النسبي

انتساب الباحث
[1] كلية الكوت الجامعة، واسط، العراق، 52001
sejjad255@gmial.com

[1] **المؤلف المراسل**

معلومات البحث
تأريخ النشر : كانون الأول 2021

The Manifestations of the Other in the Poetry of Elia Abu Madi

Lec. Dr. Sejjad Adnan Kazom [1]

Affiliation of Author
[1] Kut University College, Wasit, Iraq, 52001
sejjad255@gmial.com

[1] **Corresponding Author**

Paper Info.
Published: Dec. 2021

Abstract

The other is different from the position of Alana, which indicates the image of the other on this basis is a composite of the social, psychological, intellectual and behavioral attributes attributed by an individual or group to others who are outside, I will take a position of the other on the basis of separation and heterogeneity, Will make the other female, and vice versa, and so will be dragged into social strata, psychological orientations and so on.

The concept of the other in the poetic output of Elijah Abu Madi is a distinct conceptual space, in that the other does not reflect an inevitable existence of a separate self. It merges with it at times, separates it from other times, and makes the intellect other, sometimes unreasonable, With creativity and excellence in subtraction, performance, poetic images, fertile imagination and passion.

Keywords: The other, the ego, the national, the human, the religious, the relative

المقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على اشرف خلق الله محمد وعلى آل بيته الاطهار وصحبه المنتجبين الاخيار. في هذه الوريقات سنتناول (الآخر في شعر إيليا أبو ماضي) وسنحاول التوصل إلى أهم ما يبني به هذا الشاعر من صور تجسد الآخر بالنسبة له.

وقد قسمنا البحث على ثلاثة مباحث وهي : (الاخر القومي، والاخر الديني، والاخر غير الانساني)، مع تمهيد يوضح ماهية مصطلح الاخر من حيث اللغة والاصطلاح، وختمنا البحث بأهم النتائج التي توصلت لها خلال هذه الورقات، سائلين الله الموفقية والسداد.

التمهيد:

الآخر لغة واصطلاحاً:

يذكر ابن منظور في لسان العرب أن كلمة الآخر تأتي بمعنى "غير" كقولك "رجل آخر وثوب آخر"[1]. اما الزبيدي في تاج العروس فلا يختلف كثيرا عما اورده ابن منظور إذ يقول : " أحد الشيئين وبمعنى غير ، كقولك رجل آخر ، وثوب آخر ، ثم صار بمعنى المغاير "[2].فتبين مما سبق ان التراث القديم فهم من المصطلح معنى (الغيرية) فنص صاحب (تاج العروس) كان ثريا في ربط المعنى المعجمي بالاصطلاحي ، وجعل المفهوم يكتسب دلالته ليضيء الدلالة للدراسات النقدية الحديثة التي جعلت منه محورا لها.

وقد وردت لفظة الآخر بفتح الخاء في القرآن الكريم في خمس عشرة مناسبةٍ بصيغة المفرد نحو قوله تعالى : (**لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا**[3])، ومنه قوله سبحانه وتعالى ايضا: (**وَأَمَّا الْآَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ**[4]).

ووردت في صيغة الجمع في أثنتين وعشرين مناسبةٍ .. نحو قوله تعالى : (**إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آَخَرُونَ**[5])، وقوله ايضا : (**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ**[6])"[7].

ولا يبعد التناول القرآني للآخر عن المعنى المعجمي كثيرا ، فالآخر يفصل بين الذات الالهية وشريكها ، ومن ثم ينفي وجود الشريك ، أو انه يفصل انتساب الموضوع من ذاتٍ إلى ذاتٍ أخرى.

فمفهوم الآخر في القرآن الكريم "مفهوم مفتاحي بكل معنى الكلمة، يصلح – بتطبيق مناهجية التحليل السياقي الاستقرائي عليه – للاستخدام بصفتها وحدة تحليلية لأنماط العلاقات الإنسانية في وضعها الكلي ، وفي فرعياتها ، من منظور يتسع الزمان والمكان ليشمل : الحياة الدنيا والآخرة ، ويتسع في أطراف العلاقة ليشمل : العلاقة بين خالق الكون بكل ما فيه ، والعلاقة بين الإنسان والإنسان ، وبينه وبين الخالق والمخلوقات الظاهرة والغيبية كافة"[8]

واذا أردنا ان نفاتش دلالة مصطلح الآخر لا يمكننا تجاهل لازمة من لوازمه الضدية وهي الانا ، فالانا والآخر مولودان معاً فالصورة التي نتخيلها عن انفسنا لا تتم بمعزل عن صورة الاخر لدينا، كما ان صورة الآخر لدينا هي بمعنى من المعاني صورة عن ذواتنا. ومصطلح الآخر من المصطلحات الفضفاضة التي تحتاج إلى تحديد التسمية، والى اتفاق واضح حول المفهوم، إذ يتشظى الآخر وتتسع دائرة معناه ليشمل حمولات تتشابك في علاقاتها مع الذات"[9].

فالانا والآخر في المعنى القريب البسيط كل ما يقارب الانا وانت ونحن، أما المعنى الاصطلاحي الابعد، وهو المراد هنا ، فالأمر مختلف ، فاذا كان الغرب هو الانا فالشرق بالنسبة اليه هو الاخر، واذا كان الشرق هو الانا فإن الاخر هو الغرب"[10]، وهذا يكشف لنا عن نسبية المصطلح في المصداق ، ولا يمكن ان تكون أنا مطلقة مع آخر مطلق ، فالعملية تبادلية تنبئ الشيء عن نفسه من جهة وعن قباله من جهة أخرى، والشيء هنا ما كان ذات عاقلة تميز انفصالها عن الذوات الاخرى التي ستكون موضوعا لهذه الذات.

وسيكشف لنا ما سبق ان أمر الآخر مرتبط بالاسس القافية لتكوين الذات فتحمل "كل الثقافات والحضارات الانسانية المختلفة صورة ما للـ (آخر). و (الآخر) هو كل ما ترى (الذات) أنه مخالف لها أو مختلف عنها . والحق أن متكلمة الاسلام قد اهتدوا الى لفظ ملائم يفيد جوانب شتى في هذا المعنى إذ تحدثوا عن (الغير) ... وحيث كان المجال المعرفي متغايرا بين (الآخر) وبين (الغير) وحيث كل منهما يحيل، بالضرورة ،الى افق ثقافي مختلف ، فإننا نفضل استعمال لفظ (الآخر) في حديثنا"[11].

ويختلف "الآخر باختلاف موقف الانا منه ، ما يشير الى صورة الآخر على هذا الاساس هي عبارة عن مركب من السمات الاجتماعية والنفسية والفكرية والسلوكية التي ينسبها فرد ما أو جماعة الى الآخرين الذين هم خارجها"[12]، فالأنا ستتخذ موقفا من الآخر باعتبار الانفصال والمغايرة ، فمشتر الجنسية بين الذكور سيجعل من الاناث آخر ، والعكس كذلك ، وعلى ذلك سيجر إلى الطبقية الاجتماعية والتوجهات النفسية وما إلى ذلك.

فقبل تحديد الآخر يجب التأمل في الانا لتبحث عن ضدها وهذا ما سيؤول به الامر في رسم صورة الآخر ، وفي تعيين دلالته ومعناه ، إلى الثقافة التي يكون إليها انتماء (الأنا) أو (الذات) التي تتحدث عن (الغير) المخالف . فنحن نجد ان الحرب والعداوة قد اتصلت سنين عديدة بين إسبرطة واثينا؛ ولكننا نلاحظ ، مع ذلك ، أن كلتا المدينتين لا تريان صفة الآخر تصدق على الخصم الغريم ولكنهما معا ، كل من موقعه ، يريان تلك الصورة للشعب الفارسي والشعب المصري ومن ثَمَّ لكل الشعوب (الاخرى)، تلك التي تختلف من جهات اللسان والدين والعادات والتقاليد[13] .

إيليا أبو ماضي رائد شعراء المهجر :

يعد الأدب المهجري بشكله العام تحولا بارزًا في تاريخ الأدب العربي، فهو نتاج خصيب مترع بالجمال و العذوبة والذي خّلفه الكتّاب والشعراء اللبنانيون والسوريون الذين رحلوا عن وطنهم، لأسباب مختلفة، و استقروا في ديار الاغتراب في مطلع القرن التاسع عشر .وكانت أهم البلاد التي توطن فيها الأدباء المهجريون مدينة نيويورك و البرازيل و الأرجنتين، قد ضمتهم جمعيتان أدبيتان هما (الرابطة القلمية) في نيويورك (العصبة الاندلسية) في ساوباولو في البرازيل، وهمت كل واحدة منهما في تكوين مدرسة مهجرية أدبية مستقلة.

من أبرز شعراء المهجر الشمالي الذي يتميز - و كان إيليا ابو ماضي (1889 – 1957) بالتحرر التام من قيود القديم، والأسلوب الفني الطابع الشخصي المتميز، وعمق الشعور بالطبيعة، والحنين إلى الوطن، والتأمل، والترعة الإنسانية، وبراعة الوصف وتصوير الحرية الدينية، و الغنائية الرقيقة في الشعر .

ويقول جورج صيدح في تحليله للشعر المهجري أنه مزج الكلاسيكية بالرومانطيقية مزج الماء بالراح، وطلا الواقعية بألوان الفن، و استل من الرمزية أفاويه تطيب النكهة، أما المخدرات السريالية فلم تقع في كأسه[14].

و إذا أردنا أن ندرس شعر أبي ماضي، وجدنا أنه مرّ في مرحلتين إثنتين هما مرحلة التقليد ومرحلة التجديد . أما مرحلة التقليد فتظهر واضحة في ديوانيه الأولين (تذكار الماضي)، و(ديوان إيليا ابي ماضي الجزء الثاني) أما مرحلة التجديد الشعري و ابتكار الصور و المعاني الجديدة فتظهر في دواوينه الثلاثة اللاحقة، التي تبيّن نضوج الشاعر، الذي يظهر خاصة في ديوانه (الجداول)[15] .

وهناك خصائص تميز بها الشاعر إيليا ابو ماضي عن غيره منها إحساسه المرهف بالطبيعة، وشعوره الأنساني السامي والتصاق شعره بالحياة والإنسان، كما يتميز شعره بالحيوية والطواعية، و الميزة الأخرى التي يتميز بها شعر(ابو ماضي) هي أن قصائده نابعة من صميم قلبه، إذ يشعر كل قارئ لها أو مستمع إليها أنها تعبّر عن إرادته و شعوره، سواء في شعره الإنساني والتأملي أو في شعره الفلسفي الذي نريد أن نتحدث عنها.

المبحث الأول

الآخر القومي

توطئة :

لعل مفهوم القومية مفهوم اشكالي غامض "بشكل متأصل، إذ تستخدم أحيانا ضمن معناها التأصيلي (الايتيمولوجي) للدلالة على علاقة الناس من حيث الأصل، والمولد، تماما مثلما هي الحال عندما يتحدث المرء عن الامة اليهودية أو الامة التشيروكية . وفي أكثر الاحيان تستخدم في معناها الموسع للدلالة على امتداد اقليم ما وسكانه والحكومة التي تحكمهم انطلاقا من محور فردي موحد"[16].

شاعرنا المدروس إيليا ابو ماضي قد شكلت هويته العربية اللبنانية تشكيلاً لقوميته، لكنه كما في الآخر الدين لم تكن قوميته عائقا في الاندماج مع الآخر العربي أو غير العربي ، لأنه سن لنفسه مبدأ الانسانية فجعل نفسه متماهيا مع الآخر غير متأهبا بالتحديدات والمباني المقيدة لإنسانيته ونجد ذلك جليا في قصيدته "سماؤها موصلة بسمائي " التي تفتح افق الاتصال بين الانا والآخر إذ قال فيها :

حتى إذا حان الوصال رمت بنا نكباء عاتية إلى الغبـــــراء[17]

وكأن (تكساس) وهي في هذا الحمى صقعٌ كسانبول قصيٌ نائي

طـــوبا لها ، إن كان يعلم أهلها أنَّ النـــزيل بها أخو الورقـــاءِ

كـــانت مســارح للرعاة فأصبحت لما أتها كعبة الشعـــــراءِ

هو بـلبلٌ عبق النبوة في أغـــا نيه ، وفيهـــا نكهة الصهبـــاءِ

وجلال لبنان ، وقد غمر المسـا هضباتـــه وأنســل في الأوداء

غنَّى ففـــــي النسمـــات والاوراق والغدران أعراس بلا ضوضاء

هو نفحة قديسة هبطت إلـــــى هذا الثرى في عالم اللألاء[18]

تنـاول ابـو ماضـي فـي قصـيدته صـديقه رشـيد سـليم الخوري، وهو يمثل الانا المشتركة معه في وسط الآخر وهو بـلاد الغرب (الولايات المتحدة الامريكيـة) وتحديدا في ولايـة تكسـاس، ويجعل من صديقه رونق يتجلى في فضاء الآخر ، ويصل الى حالة يغبط الآخر لان صديقه يمثل الانا بينهم في قوله :

طـــوبا لها ، إن كـان يعلم أهلها أنَّ النـــزيل بهـا أخو الورقـــاءِ

كـــانت مســـارح للرعـاة فأصبحت لما أتها كعبـة الشعـــــراءِ

ومن ثم يستذكر الشـاعر متعلقـات الانـا بـذكره بـلاده الام (لبنـان) ، وهـذا الاسـتذكار بسـبب اسـتحواذ مكـان بـلاد الآخـر علـى ذاتـه ، وصـارت تضـغط علـى وجدانـه وكأنهـا السـجن الواسـع ، وإذا ببلـده سيكون نجاته وحريته :

وجلال لبنان ، وقد غمر المســا هضباتـــه وأنســـل في الأوداء

غنَّى ففـــــي النسمـــات والاوراق والغدران أعراس بلا ضوضـاء

الانا الشرقية والذات الغربية :

على الرغم من السنين الطوال التي عاشها الشاعر في الولايـات المتحدة الامريكية ، وأخذ من الاخر الكثير من الافكار والثقافات لكن وجدانه لم يزل متآتٍ صوب المشرق ، منبت وجوده ، ومصنع تكـوين هويتـه ، والانـا الشـاعرة ، فكتـب قصـيدة ينتابهـا الكثيـر مـن الحماسة عنونها "إلى الشرق إنتسابي" ، وهو يطرحها ليجيب عن سؤال من انت يا إيليا ؟ فقال :

أيهـــــا السائل عني مـــــــن أنـا أنا كالشمـــس إلى الشـــرق انتسابي

لغةُ الفـــــــولاذِ هاضـت[19] لغتـــي لا يعيـــش الشـــدوُ في دنيا اصطخابِ

لست أشكو إن شكى غيري النوى غـربـــة الأجســـام ليســـت باغتراب

أنا كالكرمةِ لو لم تـــــغتـــــربْ ما حولها الناسُ خمرا في الخـــــوابـي

أنا كالسوسن لو لم ينتقـــــــل لم يتـــــوج زهـــره رأس كعـــــــاب

أنـــــا فـــي نيـــويورك بالجـسمِ وبالروحِ في الشرق على تلك الهضاب

أنا فـــي الغوطـةِ زهرٌ وندى أنـــا فـــي لبنـــان نجـوى وتصـابي

ربِّ هَـبنـــي لبـــلادي عـــودةً وليكـــن للغير في الاخـرى ثوابي[20]

فمن الملاحظ ان القصيدة بينت تشكلات للانا أتت في معرض الرد على الآخر ، فبجوابه يرسم لأناه عظمة ورفعة ، فمرة يقرنه - أي أناه - بالشمس العظيمة، ويقرن لغته بالفولاذ الصلد ، ويلتفت في قصيدته لفتات فلسفية عدة، فهو ينفي وجود أهمية للجسد في تكوين الأنا ، فلو كانت للأجساد أهمية لما صار الشرق انتسابه وهو في الغربي يرتع فقال :

لست أشكو إن شكى غيري النوى غربة الأجسام ليست باغتراب

ويؤكد هذا المعنى في بيت آخر:

أنا في نيويورك بالجسمِ وبالروحِ في الشرق على تلك الهضاب

ويصف حال اغترابه كحال الكروم التي تجنى من أرضها لتخزن في بيئة الرطوبة الظلام التي لا تشبه كينونتها الوجودية ولهذا تتحول إلى خمر في قوله:

أنا كالكرمةِ لو لم تغتربْ ما حولها الناسُ خمرا في الخوابي

ثم يستذكر أماكن الانا وهي (لبنان،) بلده مع (الغوطة) وهي مدينة سورية ، وعلى الرغم من أن الغوطة ليست من مدن لبنان فهي آخر بالنسبة للبلد، لكنها مثلت الانا في بلاد الغرب ولعل ذلك نابع من اعلان انتمائه للشرق من جهة وجسده في بلاد الغرب ، ومن جهة أخرى ان الغوطة هي من بلاد الشام ونبع من منابع العروبة التي ينتمي إليها الشاعر ، فقال في ذلك :

أنا في الغوطةِ زهرٌ وندى أنا في لبنان نجوى وتصابي

الآخر المحتل :

ولم يبتعد عن المعنى السابق في قصيدة قالها معنونة بـ (تحية الشام) قال في مطلعها :

حيِّ الشآم مهندا وكتابا والغوطة الخضراء والمحرابا[21]

وأخذ في هذه القصيدة يمدح بيوسف العظمة الذي قاد الثوار السوريين في معركة ميسلون ضد الاحتلال الفرنسي ، واستشهد أثرها يوسف العظمة ، وهذا ما دعاه إلى نعيه ورثاه :

لما ثوى في ميسلون ترنَّحت هضباتها وتنفست اطيابا

وأتى النجوم حديثه فتهافتت لتقاوم حرَّاسا له حجابا

وما كان يوسفُ واحدا بل موكبا للنور غلغل في الشموس فغابا[22]

ومن ثم يأخذ بمدحه فيقول :

ليت الرياض تعيرني ألوانها لأصوغ منعها للرئيس خطابا

وأقولَ إنـــي عـــاجزٌ عن شـكره عجز الأنامل أن تلم عبـــــابا

أشكو إلى نفســـي العباب فتشـــتكي مثلي، وتصمت لا تحير جوابا

فلقد رأيت البـــحر حـــين رأيتـــه فتوقف مضطرب الرؤى هـيَّابا

أَعميد سوريا وكاشـــف ضـــرها خلقت يداك من الشيوخ شـبابا

وبلابل كانـــت تـــئن سجـــينةً أطلقتـــها وأطـــرتها أسرابا

يا صاحب الحلق المصفى كالنـــدى لو لم تكن بشرا لكنت سحابا

أمل الشبيبة في يديك وديعـــة فارفع لها الأخلاق والآدابـا

فالجهل فالجهل أنى كان فهو عقوبةٌ والعلم أنَّى كان كان ثوابـا

يا ويح نفسي كم تطاردني النـوى وتهد من القلب والاعصـابا

ودعـــت خلـــف البحـــر أمس أحبة وغـــدا أودع هاهنا أحبابا[23]

قامت الابيات السابقة على مدح يوسف العظمة فالمنحى الاول يفترض ان يكون يوسف العظمة ممثلا للآخر ، لكن الشاعر جعل منه ممثلا للذات ، لكون عدو يوسف هو الذي سيكون الآخر المنفصل وهو الفرنسي المحتل ، فاتفقت الانا الشاعرة مع الانا المقاومة ضد الآخر الغربي المحتل .

ولم يكتفِ إيليا أبو ماضي بجعل يوسف العظمة السوري ممثلا له ، بل جعل من "مصـــــطفى باشـــا " المصري ذاتا لبنانية تقاوم الاخر الانجليزي فيقول في رثائه:

بكيت ولكـــن بالدمـــــوع الســـخينة وما نفدت حتى بكيتُ بمهجـتي

على كامل الاخلاق والندب مصطفى فقد كان زين العقل زين الفـتوة

نعاه لنا الناعي فكادت بنا الدنـى تميد لهولِ الخطب خطب المروءة

وذابـــــت قلـــوب العالمين تلهـــفا وسالت دموع الحزن من كل مـــقلة

أجل قد قضى في مصر أعظم كاتب فخلف بالاكباد أعظـــم حســرة

فتى وأبي لو أن في الناس مثله لهان علينا وقع هذي الرزيـــة

ولو كان يفدى في النفوس الردى جعلنا فده كل نفس أبـــــــيةِ[24]

توغل القصيدة في مدح مصطفى كمال باشا ، فهو يبكيه (بالدموع السخينة) بل (بمهجته) ، ويصل به الجزع ليقول :

نعاه لنا الناعي فكادت بنا الدنـى تميد لهولِ الخطب خطب المروءة

وذابـــــت قلـــوب العالمين تلهـــفا وسالت دموع الحزن من كل مـــقلة

أجل قد قضى في مصر أعظم كاتب فخلف بالاكباد أعظـــم حســرة

ويصفه بـ (زينة العقل ، وزين الفتوة) ومن ثم يصل إلى ذرى الوصف العظيم في قوله :

فتى وأبي لو أن في الناس مثله لهان علينا وقع هذي الرزيـــــة

ولو كان يفدى في النفوس الردى جعلنا فده كل نفس أبـــــــــيةِ

ويتضح مما سبق ان الآخر القومي بالنسبة لإيليا أبو ماضي نسبي مطلقا ، فنجده يجعل من السوري والمصري أنا له في قبال الاخر الغربي ، ولم تشكل عنده هويته القومية اللبنانية والدينية المسيحية ان يكون مثل هؤلاء القادة ذاتا له ، لكنه لم يتنازل عن هويته الشرقية على الرغم من عيشه في بلاد الغرب طويلا .

"الانتماء إلى النسب الفينيقي ، فإنهم قد شكلوا تاريخا بأنفسهم سيمنحهم مصداقية ،أكبر في المنطقة ، من أبناء بلدهم من المسلمين، بينما تدلهم في الوقت ذاته على كيفية الوصول لأوربا، وان تشكيل هوية سامية شمالية توحد الفينيقية مع الآرية والسريانية، التي هي لغة المارونيين الطقوسية ، يربطها بعربية السامية الجنوبية ، ويميزها عنها"[25] .

المبحث الثاني

الآخر الديني

توطئة :

دامت الهيمنة الإسلامية قرونا عدة في لبنان مسقط رأس الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي ، وكان على رأس النسق الثقافي المهيمن هو القرآن، لا سيما في الجانب اللغوي ، مع ادعاء مسيحيو لبنان

الآخر والمذهبية :

وفي ظل هذه الأزمة الدينية المحتدمة في لبنان لم يكن ايليا أبو ماضي متشرب حيثياتها، فقد كانت هوية الأنا الدينية عنده اشمل لتضم معها الآخر غير المسيحي، وهي وقد صقل هويته بعناية وكأنه يصنع لنفسه دينا جديدا للإنسانية التي تشكل مع الآخر ذاتا واحدة ، فرؤيته للدين رؤية مختلفة ، فلا نكاد نرى ذاته تبان في ظل اندماجه مع الآخر الديني والمذهبي ، وفي هذا السياق يقول :

وسائلةٍ : أي المذاهـــب مذهبـــي وهل كان فرعا في الديانات أم أصلا

وأيَّ نبيٍّ مُرســلٍ أقتـــدي بـــه وأيِّ كتابٍ مرسل عنـــدي الأغلى ؟

فقلت لها لا يقتني المرء مذهبـــا وإن جلَّ ، إلَّا كان في عنقه غلَّا

فما مذهب الانســـــان الا زجاجة تقـــيده خـــــمرا وتضـــــبطه خـــــلّا

فإن كان قبـــــحا لم يبدله لونها جمـــالا، ولا نبلا إذا لم يكن نبلا

أنا آدمي كـــــــان يحسب أنه هو الكائن الأسمى وشرعته الفضلى

وأن له الدنيـــــا التي هو بعضـــها وأن له الأخرى إذا صام أو صلَّى

تتلمذتُ للإنسان في الدهر حقبةً فـلـقـنـنـــي غـيـــــاً ، وعـــلـــمني جهلا

نهاني عن قتل الـنفوس وعندما رأى غرة مني تعلم بي القـــــــتلا

وذم إلي الرق ثم استـــــرقني وصوَّرَ ظلما فيه تمـــجيده عدلا[26]

في الأبيات السابقة يطرح الشاعر آلية التصنيف الديني ويفصل الديانات الى مذاهب وفروع ، ولعله يأتي بهذا التساؤل ليجعله وسيلة لطرح الانا مقابل الآخر من جهة ، ومن جهة يطرحه ويلمح عليه بشيء من الاستهزاء لا سيما انه يجيب عن ديانته بمخالفة افق التوقع فيقول : (لا يقتني المرء مذهبـــــا) ، ويشبه الحالة المذهبية التي تنتاب الآخر بأنه كزجاجة الخمر التي تذهب العقل ، ويؤكد ان

تفكيره الذي كان يشابه تفكير الآخر الانساني بالتمحور المذهبي كان خاطئا فقال :

أنا آدمي كـــــان يحسب أنه هو الكائن الأسمى وشرعته الفضلى

وأن له الدنيـــا التي هو بعضـــها وأن له الأخرى إذا صام أو صلَّى

ومن ثم أكد خطأ تصوراته بممارسة حجاجية في قوله :

تتلمذتُ للإنسان في الدهر حقبةً فـلـقـنـنـي غـيـــاً ، وعـلـمني جهلا

نهاني عن قتل الـنفوس وعندما رأى غرة مني تعلم بي القـــــتلا

وذم إلي الرق ثم استـــرقني وصوَّرَ ظلما فيه تمـــجيده عدلا

وبشيء من التشابه يطرح مرة أخرى عقيدته للآخر في قوله :

حرٌّ ومـــذهب كل حـــر مـذهبي ما كنت بالغاوي ولا المتعصبِ

إني لأغضب للكريم يـــنوشه[27] من دونـــهُ وألم من لم يغضـــب

وأحب كل مـــــهذبٍ لو أنـــه خصمي وأرحم كلَّ غيرِ مهذب

يأبى فؤادي أن يميل إلى الأذى حـــبُّ الأذية من طباع العقرب

لـــي أن أردَّ مســاءةً بمســاءةٍ او أنني أرضـــى بـــبرق خولَّبِ[28]

حسب المسيء شعوره ومقاله في سرِّه : يا ليتني لم أذنب[29]

ويتضح من الأبيات السابقة ان الشاعر تناول الآخر من الحيثية الموضوعية لا الذاتية ، فمن الجهة الاولى أعلن ان مذهبه ليس المسيحية الكاثوليكية ، بل صنع لنفسه مذهباً آخر، وهو (مذهب الأحرار) حين قال : (حرٌّ ومـــذهب كل حـــر مـذهبي) ، وبعد ذلك اعطى معايير تشكل كينونة مذهبه وهي (الكرم ، والتهذيب، والرحمة ، وعدم الأذى ، وعدم رد الاساءة بمثلها) ، وبهذه المنظومة التي ترتكز على الاخلاق كونت اعتقادا وأنا الشاعر ، وبعد ذلك من سيخالفه بهذا الاعتقاد الذي قوامه العمل الاخلاقي سيكون آخر ، ولكن لن يكون الآخر ضدي لكنه تعهد في ابياته بعدم الأذية حين قال :

يأبى فؤادي أن يميل إلى الأذى حـــبُّ الأذية من طباع العقرب

الآخر والعدمية :

في حوار الشاعر مع الآخر الديني والآخر اللاديني ينطلق من واقع عدمي ، فلم يعد يهمه ركائز الثابت الديني ولا التشكيكات الكفرية، ولا أي المعتقد الذي يتشبث به الآخر ، ومرجع ذلك واقعه النفسي والفكري المتأزم ، ومن ذلك ما قال :

سئمت نفسي الحياة مع الناس وملَّت حتى من الأحـــباب

وتمشت فيها المـــلالة حتى ضجرت من طعمها والشراب

ومن العـــابدين كـــــلَّ إلـــــه ومن الكافـرين بـــالأربـــاب

ومـــــــــن الـــواقفين كالأنصاب ومن الساجدين للأنصاب[30]

فمنطلق الشاعر العدمي منطلق نفسي كما لاحظنا لا سيما وهو يؤكد ذلك في قوله :

سئمت نفسي الحياة مع الناس ومـلَّت حتى من الأحـباب

فسؤمه من الحياة انجر الى سؤمه من متعلقاتها المادية والمعنوية وانجر ذلك لرفضه الآخر الديني واللاديني كما في قوله :

ومن العـــابدين كـــــلَّ إلـــــه ومن الكافـرين بـــالأربـــاب

ويصور رفضه بمفارقة غريبة بأن الذي يفعل شيئاً، ويأخذ دور الانصاب حاله حال عابد الانصاب ، فهو يحرك الآخر على رفض عبادة الانصاب من جهة ، ورفض الوقوف مكتوف اليدين من جهة أخرى .

الآخر والاخلاق :

يفترض الشاعر ان هناك آخر يرفض الحب ، ويهدد بجهنم ، ولا يروقه دين المحبة والانسانية :

قال قـــوم أن المـــــحبـــة أثـم ويـح بعض النفوس ما أغباها

إنَّ نفسا لم يشرق الحب فيـــها هي نفس لم تدري ما معـــناها

خـــــوفوني جـــهنم ولـــظـــاها أيُّ شـــيءٍ جـــــهنَّمُ ولـظـــاها ؟

ليس عند الإله نارٌ لذي حـبٍ ونـــــار الإنســـــان لا أخـــــشاها

أنا بالحب قد وصلت إلى نفسي وبالـــــــــحب قـــــد رفـــت الـــــله [31]

تشتمل الابيات على الثنائية الضدية بين الخير والشر ، والحب والكره ، والعقاب والرحمة ، وتنتصر أنا الشاعر الخيرة المحبة الرحيمة ، على الآخر الشرير الكاره المعاقب ، ففي الابيات السابقة رسالة اخلاقية عظيمة وظفها من خلال صراع الأنا مع الآخر .

الآخر مقوض الوحدة الدينية :

من المعلوم أن الوضع السياسي والديني في لبنان ينتابه التأزم مذ تأسست الدولة اللبنانية الحديثة ، وهذا بالنتيجة سينعكس على ذات الشاعر، فنجده ناقما من الآخر الذي لا يرى في لبنان إلا السياسة والطوائف ، فكتب قصيدة عنونها "الله حامي لبنان" وكأنه بهذا العنوان يبين عجزه أمام الوضع المتدهور الذي سببه الآخر المتخلف ، فيقول :

غيري يراه سياسة وطـــوائفا ويـــظل يـــزعمُ أنـــه رائـيـــه

ويروح من إشفاقه يبكي لـــــه لبنان أنت أحق أن تبكيـــه

لا يسفرُ الحسن النزيه لناظر ما دام منه الطرف غير نزيه[32]

الآخر عابد المال :

يصور الشاعر آخر دينياً لكن برؤية مجازية ، وهو ذلك الذي لا يؤمن برب ولا رسول سوى بالمال وما يؤول اليه فيقول :

يا عابد المال قل لي هل وجدت به روحا تؤاسيـــك أو روحا تؤاسيها

حتى مَ ، يا صاح ، تخفيه وتطمره كأنــما هو ســـوءات تـــواريها

تحرم النفس لذاتٍ لهـــا خُلــقت ولم تصاحبك ، يا هذا ، لتؤذيها

أنظر إلى الماء إنَّ البذل شيمته يأتي الحقول فيرويها ويحييــها

فمـــا تعكـــر إلا وهـــو منحبس والنفس كالماء تحكيه ويحكيـها

الســـجن للمـــاء يؤذيـــه ويفسده والسجن للنفس يؤذيها ويضنيها[33]

يصور الشاعر الآخر الطماع المستغل بـ (العابد للمال) ، ويصور ان طقوس هذا العابد من خلال طمره للمال واخفائه ، ويشقي نفسه حتى لا يصرف من ماله ، ويحاول اقناع الآخر العابد للمال من خلال تبصيره على منافع الكرم ، اذ ينبت كرم المياه نباتا، ويشبه سجن المال بسجن الماء اذ بإطلاقه تعم الحياة .

المبحث الثالث

الآخر غير الانساني

توطئة:

لا شك ان الشاعر إيليا أبو ماضي كان متميزا ومبتكرا ، ولم يشأ ان يسر على ما سار عليه سلفه، فكان مما يميز شعره أنه يرتقي بالذوات غير العاقلة إلى منزلة الذات العاقلة، ويتناول هذه المزية بحرفية وإنماز، ويسعفه على تميزه عمق فكره الفلسفي ، وابداعه الذهني المنطلق من تجربته الشعورية الغنية .

ومما نجده في شعره من تحاوره مع الآخر غير الانساني قصيدته (السماء)، إذ قال فيها :

لا تسلني عن السماء فما عندي إلا النعـــوت والاسمـــــاء

هي شيءٌ وبعض شيء وحينا كلُّ شيءٍ وعند قـــوم هبـاء

فسماء الراعـــــي كما يتمناها مروجٌ فســيحة خضـــــــراء

تلـــبس التبر مئـــــزرا ووشاحا كلما أشرقت وغابت ذكـاء[34]

أبدا في نضارة لا يجـــف العشـ ـب فيها ، ولا يغيض الماء[35]

يجعل ايليا ابو ماضي من السماء ذات مجهولة الماهية ولا يملك معرفتها الا ما تعلق بالنعوت والاسماء ، ويبدأ بعده ببيان النعوت التي لازمت ذهنه، فهي شيء تارة ولا شيء تارة أخرى، وكأنه يجعل من الآخر غير الانساني متشكلا لما ينطق به الذهن من رؤيا تجاهه، فهو لم يبقَ على الشيئية بل اعطى للسماء شيئاً من الملامح الانسانية في قوله :

تلـــبس التبر مئـــــزرا ووشاحا كلما أشرقت وغابت ذكـاء

أبدا في نضارة لا يجـــف العشـ ـب فيها ، ولا يغيض الماء

ولعل السماء تمثل المجهول الذي يسعى إليه كل ذي فضولٍ لا يرتوي ومن سؤال الماهية والوجود ، فالسماء كذات تمثل الآخر أطرقت كثيرا في شعر إيليا أبو ماضي ، ذلك الفضولي النهم ، الذي لا يفتأ ان يطلق وحيه تجاهها ، وفي القصيدة التالية نجد ذوات عدة تجسد الآخر غير الانساني في شعر إيليا ، فقال في قصيدته التي عنوانها "حنين الشاعر في السماء":

رآني الله ذات يـــــــوم في الأرضِ أبكي من الشقاءْ

فَرَقَّ واللهُ ذو حنـــــــان على ذوي الضر والعنـــاء

وقال ليس الـــــــــتراب داراً للشعر فارجـع إلى السماء

وشاد فوق السماك بيــتي ودَّ ملــكي عـلى الفضـــــاء

لكنَّني لم أزل حـــــزينا مكتئب الروح في العـلاء

فاستغرب الله كيف أشقى في عـــــالم الوحـــي والسناء

وقـــــــال ما زال آدمـــيا يصبو إلى الغـــيد[36] والطلاء[37]

جعل الشاعر من الذات الإلهية (آخر) ، وهو ذات عاقلة غير إنسانية ، وليس كمثله شيء ، وفي مشهدٍ عرفاني يصور الشاعر نفسه وكأن له مع الذات الالهية علاقة الود التي تجعل من الله تعالى يعتني بهذا العبد ، وكذلك يضفي للذات الالهية بعض الملامح الانسانية كما في قوله :

فاستغرب الله كيف أشقى في عـــــالم الوحـــي والسناء

ولعل تناوله للذات الالهية بهذا الشكل الذي قد يفهم منه سوء وصفٍ لله عز وجل ، لكن مبتغاه ايصال فكرة قرب العبد من ربه ، لينزل الرب من ملكوته ليعتني بذلك العبد الشقي .

وفي قصيدة أخرى اسمها (الروح) وهي ماهية متحيرة تقع بين الانا والآخر من جهة ، وبين الانا الانسانية وغير الانسانية من جهة أخرى ، قال فيها :

روحي التي بالأمس كانت ترتــع في الغاب مثل الظبية القمراء

تقتات بالثمــر الجنـــــي فتشبع ويبلُّ غلَّتها رشـــاش الماء

نظرت إليكِ فأصبحت لا تقـــــنع بالماء والافيــاء في الغبراء

تصغي وتنصت والحمامة تسجع إصغاؤها لـك ليس للورقاءِ[38،39]

نلاحظ من الابيات السالفة ان الشاعر جعل روحه التي تمثل ذاته منزلة الآخر بالنسبة إليه ، وأعطاها صفات لا انسانية في وصفها (الظبية القمراء) لكنها لم تفقد انسانيتها إذ إنها لا تتنابها القناعة في قوله :

نظرت إليكِ فأصبحت لا تقـــــنع بالماء والافيــاء في الغبراء

وفي قصيدة أخرى جعل الشعر من النباتات آخر مجسدا ذاتا غير إنسانية ، وهذا النبات هو "العليقة"، شجيرة شائكة متسلقة يصل ارتفاعها إلى أربعة أمتار ، ويصفها ويقول :

ذات شوكٍ كالحرابِ أو كأظفار العقـــابِ فلها نهش الأفاعي ، ولها لسع الذبـــــاب

ربضت بالغاب كاللص ، لفتكٍ واستـلابِ وأذاها في سكوني، كأذاها في اضطرابي

صنت عنها حر وجهي، فتصدت لثيابي وهي كالقيد لساقي، ولجـيدي كالسـخابِ[40]

كلما أفلـــت من نـــابٍ تلَّقتـــني بنابِ فكأنها في عناقٍ لا نضالٍ ووثـــابي[41]

ويجسد الشاعر بهذه القصيدة ذلك النبات على انه آخر متوحش كاسر محتال فأعطى له صفات تدل على ، فتك ، استلاب ، عدوانه (الحراب ، أظفار العقاب ، اللص ، لها نهش الافاعي ، لسع

الذباب، .. الخ)، وعلى الرغم من ان الاخر غير انساني لكن الشاعر لم يجسده بالصفات البشرية في صفة (اللص ، والاستلاب) أما باقي الصفات فكانت مشتقة من الصفات الحيوانية المفترسة والمؤذية ، ولعل هذا الاخر غير الانساني هو قنع عن آخر انساني، توارى الشاعر عن ذكره بشيء من الرمزية ليعطي المتلقي أفقاً واسعاً بالتأويل .

وأيضا جسد الشاعر من (الارض) الاخر النسبي بالنسبة له ، فإنه آخر ما دام لم يواري جسده الثرى ،وما إن يواريه فسيصير له ذاتا، فقال في قصيدة رائعة :

أنا للأرض وإن طال عن الارض اغترابي

ما بنفسي خشية الموت ولا منه ارتهـــابي

أنا للأرض وإن طال عن الارض اغـترابي

غيرَ أنـــــي لم يزل ضرعي لمري واحتـلابِ

لم أهب كل الذي عندي، ولم يفرغ وطــابي

أنا نهرٌ لم أتمّم بعدُ في الرض انسـيابي

أنا روضٌ لم أذعْ كـــلَّ عبيري ومـــلابي[42، 43]

في الابيات السابقة يكرس الشاعر مبدأ أساسي وكأنه يرد على من يفكر أن الارض هي ذات أخرى لا ننتمي لها ، بأن يجعل من الذات التي تمثل الآخر هي شيءً متماهيا مع ذاته ، ولم تكن هذه التساؤلات مقتصرة على الارض فقط ، فقد جعل أبو ماضي من البحر ذاتا تمثل الاخر غير الانساني في قوله :

قد سألت البحر يوما هل أنا يا بحر منكا ؟

هل صحيحٌ ما رواه بعضهم عني وعنكـــا ؟

أم ترى ما زعموا زورا وبــهتانا وإفكـا ؟

ضحكت أمواجه من وقالت لســت أدري

****

أنت يا بحر أسيرٌ آه ما أعظم أسرك

أنت مثلـــي أيها الجبار لا تملك أمـرك

أشبهت حالك حالي وحكى عذري عــذرك

فمتى تنجو من الأسر وتنجو؟ لست أدري[44]

تعد هذه القصيدة من القصائد الفلسفية لإليا أبي ماضي ، ويتناول فيها مجموعة كبيرة من الأُخريات غير الانسانية ، ويحاور الآخر بكم كبير من الاسئلة ، ويجيب عن نفسه بأجابة من لم يصل لنتيجة فيقول (لست أدري).

الخاتمة :

يعد إيليا أو ماضي من الشعراء الحداثيين الذين جددوا بالشعر العربي الشيء الكثير ، ونجد ذلك في دراستنا للشعر أن الاخر بالنسبة إليه كان متميزا من حيث إنه لم يكن يجسد وجودا حتميا لذات منفصلة ، فهو يندمج معها تارة، وينفصل عنها تارة أخرى ، ويجعل من العاقل آخر ومن غير العاقل تارة أخرى ، كل ذلك مع إبداع وتميز في الطرح والاداء والصور الشعرية والخيال الخصب والعاطفة الجياشة .

الهوامش:

1. لسان العرب : محمد بن مكرم الافريقي المصري ابن منظور ، تحقيق: عبدالله علي الكبير ، وآخرون ، دار المعارف القاهرة ، د.ط.ت ، مادة آخر ،1 ،87 .
2. تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق : علي هلال ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1 ، 2001م، 10 ، 34 .
3. الاسراء : 22 .
4. يوسف : من الآية 41 .
5. الفرقان : من الآية 4 .
6. الصافات : 82 .
7. الانا والاخر في المعلقات العشر :سعد سامي محمد ، رسالة ماجستير ، بأشراف : جنان محمد عبد الجليل ، جامعة البصرة، كلية الآداب ، 1433ه - 2012م ، 3 .
8. الانا والآخر من منظور قرآني : السيد عمر ، تحرير : منى أبو الفضل ، و نادية محمود مصطفى ، دار الفكر، دمشق ، (د.ط)، 2008م ، 51 .
9. الأخر في الشعر الجاهلي : مي عودة أحمد ياسين ، رسالة ماجستير ، بإشراف : أحسان الديك ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس - فلسطين ، 2006م ، 4 .
10. الآخر في الشعر الجاهلي : 5 .
11. ينظر: أوربا في مرآة الرِّحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة : سعيد بن سعيد العلوي ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2012م .14 .

12. الآخر في الشعر الجاهلي : 6 .
13. أوربا في مرآة الرِّحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة : 17 .
14. أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية : جورج صيدح ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العالية 1956، 37 .
15. ينظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي ؛ الأدب الحديث : حنا خافوري ، دار الجيل ، بيروت (د .ط) ، (د.ت) ، 591- 597
16. اللغة والهوية ؛ قومية إثنية – دينية : جون جوزيف ، ترجمة: عبد النور خراقي ، عالم المعرفة ، الكويت ، 342 – اغسطس، 2007م ، 131 .
17. قصيدة كتبها الشاعر إلى القروي (رشيد سليم الخوري) ألقيت في الحفلة الوداعية التي أقيمت في ولاية تكساس (الولايات المتحدة الأمريكية) .
18. [1]يوان إيليا أبو ماضي: 54 .
19. هاضت لغتي: انكسرت .
20. ديوان إيليا أبو ماضي: 75 .
21. المصدر نفسه: 81 .
22. المصدر نفسه : 82 .
23. المصدر نفسه: 83 – 84 .
24. المصدر نفسه:120 .
25. اللغة والهوية قومية – اثنية دينية : 297 .
26. ديوان إيليا أبو ماضي: 351 .
27. ناوشت فلان : اختبرت قوته .
28. البرق الخلب : الكاذب الذي لا يعقبه مطر .
29. ديوان إيليا أبو ماضي: 70 .
30. المصدر نفسه: 72- 73 .
31. المصدر نفسه : 466 .
32. المصدر نفسه: 473 .
33. المصدر نفسه: 477 .
34. تبر : ذهب. ذكاء : الشمس .
35. ديوان إيليا أبو ماضي: 37 .
36. الغيد: الميل والليونة .
37. ديوان إيليا أبو ماضي: 57 .
38. الورقاء: الحمامة .
39. ديوان إيليا أبو ماضي: 57 .
40. السخاب: عقد من ورود .
41. ديوان إيليا أبو ماضي: 78 .
42. المصدر نفسه: 79 .
43. ملاب : طيب يشبه الزعفران .
44. ديوان إيليا أبو ماضي: 98 – 99 .

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم أكرم المصادر وأثمنها .
- أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية : جورج صيدح ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العالية 1956.
- الانا والآخر من منظور قرآني : السيد عمر ، تحرير : منى أبو الفضل ، و نادية محمود مصطفى ، دار الفكر ، دمشق ، (د.ط)، 2008م .
- أوربا في مرآة الرِّحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة : سعيد بن سعيد العلوي ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2012م .
- تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق : علي هلال ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1 ، 2001م .
- ديوان إيليا أبو ماضي : قدم له وعلق عليه : إبراهيم شمس الدين ، منشورات مؤسسة النور للمطبوعات ، بيروت – لبنان، ط1 ، 2005م .
- الجامع في تاريخ الأدب العربي ؛ الأدب الحديث : حنا خافوري ، دار الجيل ، بيروت (د .ط) ، (د.ت) .
- لسان العرب : محمد بن مكرم الافريقي المصري ابن منظور ، تحقيق: عبدالله علي الكبير ، وآخرون ، دار المعارف القاهرة ، د.ط.ت ، مادة آخر .
- اللغة والهوية ؛ قومية إثنية – دينية : جون جوزيف ، ترجمة: عبد النور خراقي ، عالم المعرفة ، الكويت ، 342 – اغسطس، 2007م .

الرسائل :

- الانا والاخر في المعلقات العشر :سعد سامي محمد ، رسالة ماجستير ، بإشراف : جنان محمد عبد الجليل ، جامعة البصرة، كلية الآداب ، 1433ه - 2012م .
- الأخر في الشعر الجاهلي : مي عودة أحمد ياسين ، رسالة ماجستير ، بإشراف : أحسان الديك ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس - فلسطين ، 2006م.